العرب
السبت 2021/03/20
السنة 43 العدد 12005

عميد الأدب العربي.. الناقد المُعنَّف والشيخ العاشق والحاج طه

كتاب جديد حول فكر طه حسين وشخصيته المستباحين

قرابة نصف قرن مرت على رحيل عميد الأدب العربي طه حسين، ولكن هجمات أصحاب الأفكار الأحادية التي واجهها طيلة حياته، لم تتراجع حتى بعد رحيله. اتهامات كثيرة له بالسرقة والانتحال وأخرى بأنه تغريبي وغيرها، كانت نتيجة لأفكاره وكتاباته. ويأتي كتاب "استرداد طه حسين" ليبين مسيرته ويرد بشكل غير مباشر على مهاجميه.

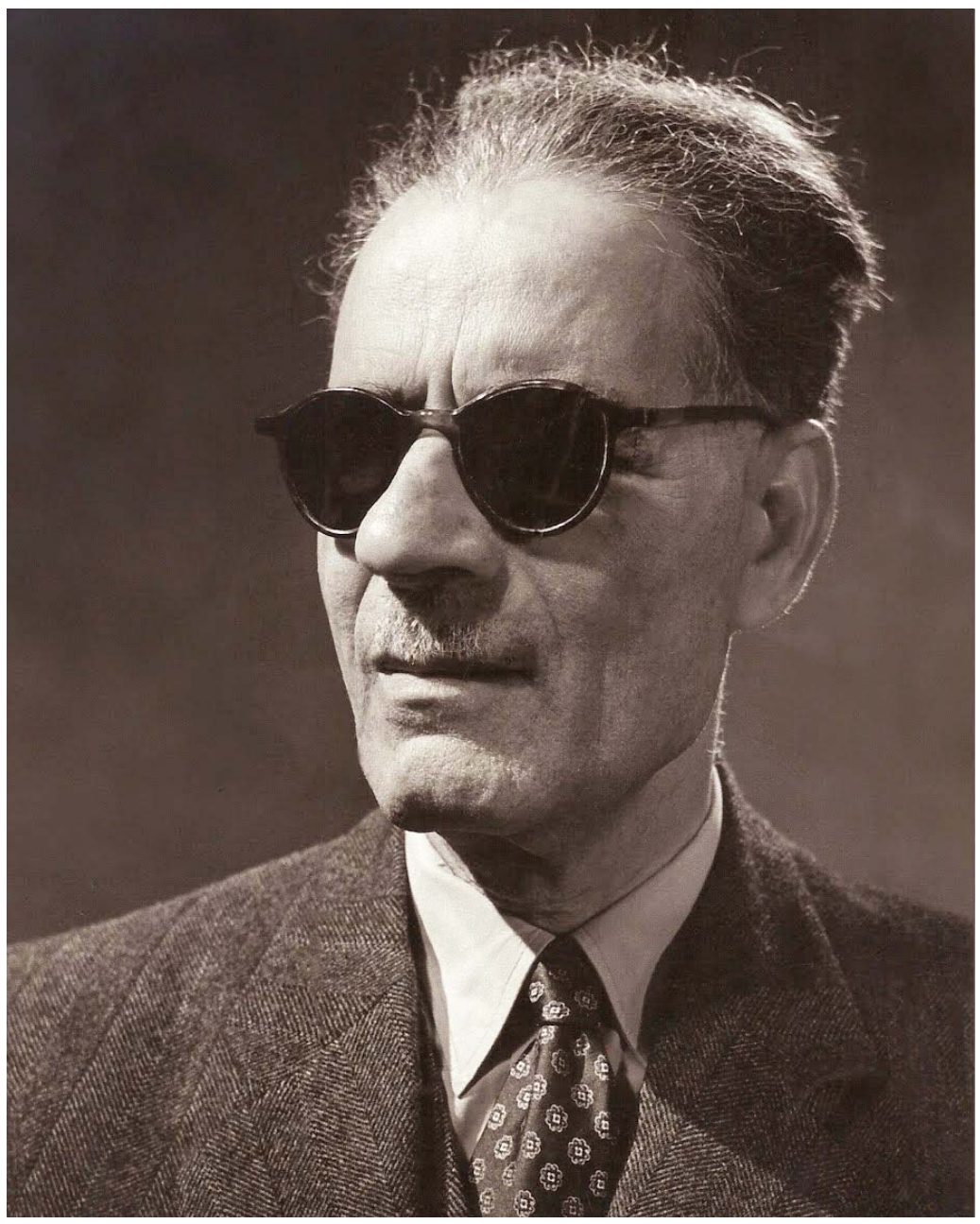
طه حسين لم يهنأ قط بسبب مالكي الحقيقة

عمان – يسعى الناقد والأكاديمي المصري ممدوح فراج النابي في كتابه الجديد "استرداد طه حسين" إلى قراءة الفكر النقدي لطه حسين، قراءة جديدة بعيدة عن تلك المغالطات التي نسبت إليه، كما يحاول الرد، بطريقة غير مباشرة، على من أساؤوا وما زالوا يسيئون إلى شخصية حسين، باعتباره بوقا غربيا يردد ما يمليه عليه الغرب، من أساتذة تتلمذ على أيديهم.

وعلاوة على رد الإساءة المتكررة، يسعى الكتاب من ضمن أحد أهدافه، إلى إثبات ريادات طه حسين الفكرية، في اتباع المناهج العلمية الحديثة واعتبارها آلية منهجية يتبعها الدارس في تناول الظواهر الأدبية.

الاستباحة الدائمة

يشير المؤلف في مقدمة كتابه، الصادر مؤخرا عن دار خطوط وظلال للنشر بعمان، والتي عنونها بـ"الشيخ المستنير" إلى أن الدكتور طه حسين (1889 – 1973) يمثل حالة فريدة وخاصة جدا في الفكر والإبداع العربيين، فهو معجزة فريدة وخالدة أيضا، وعبقرية فكرية وأدبية معاصرة بلا جدال، كما وصفه الدكتور محمد الدسوقي.

ونال حسين تلك المكانة لما أثارته كتاباته على تعددها، وتحديدا النقدية والفكرية، من أفكار كان لها السبق والريادة في تناول قضايا إشكالية على المستوى النقدي والفكري، لم يكن من السهل مجرد الاقتراب منها، أو حتى إثارتها بالسؤال لا بتقويضها وتفكيكها كما فعل، هذا من جانب، ومن جانب ثان لما خلفته هذه الأفكار من هزات للثوابت بدعوتها إلى العقلانية، وعدم الركون إلى الموروث والمسلم به. فأثار الكثير من الجدل سواء على مستوى شخصيته، أو على مستوى كتاباته، التي كانت تثويرا وخرقا للسائد، وكسرا للجمود والتحجر.

> الكتاب أشبه باسترداد لطه حسين من الأيادي التي عبثت بتراثه وأفكاره، دفاعا عن القيمة لا عن الشخص

وبسبب هذه الأفكار وخروجها عن النسق السائد أو الرائج، تم اصطياده من قبل رجال الدين إلى الفخاخ التي نصبت له، بل يمكننا القول إنه وعلى امتداد حياته لم يهنأ قط بسبب ملاك الحقيقة المطلقة، أو المتزمتين من ذوي الأصولية الدينية، أو أصحاب الفكر الأحادي المغلق بتعبير حنة أرندت الذي يحكم على الواقع وهو خارجه، ويكتفي بذاته ولا يعترف بغيره.

وقد أدان معسكر القديم من الشيوخ ورجال الأزهر أفكار طه حسين، لأنها كانت تمهد لثورة على المسلمات الراسخة التي آمنوا بها إلى حد التقديس، دون أن يعملوا عقولهم، وهو ما كان فارقا كبيرا بين عقولهم التي أبت التجديد والخروج عن أثر السلف، وبين فكر طه حسين الذي كان يحلق بعيدا، متجاوزا لكل ما يرددونه من أفكار وقراءات، إذ يعمل العقل، أولا وأخيرا، في كل أمور حياته منذ أن كان طفلا في الكتاب.

ومن ثم يمكن القول، بلا أدنى ريبة، إن طه حسين لم يثر فقط على مناهج الدرس التي كان ينتهجها الأساتذة والشيوخ في المدارس والأزهر ودار العلوم، بما طرحه من أفكار جريئة، بدءا من دراسته عن أبي العلاء المعري، وما استنتجه من آراء أثارت معسكر القديم ضده، وهو ما واصله بشكل صدامي في كتاب "في الشعر الجاهلي"، وإنما ثار ثورة شاملة وعامة، كانت أشبه بثورة عارمة على الجمود والرجعية، كما هو واضح في سيرته "الأيام"، وسعيه لتحطيم الأنساق المقيدة كافة، ووجوه الاستبداد التي عانى منها.

ويتبنى هذا الكتاب الجديد للنابي منذ أن كان مشروعا تأسس مع مقالة "طه حسين وفتح آفاق المعرفة العلمية" وجهة نظر ربما يرى البعض فيها مبالغة، نوعا ما تتمثل في أن فكر طه حسين وشخصيته كانا مستباحين على الدوام، ومن ثم يسعى ضمن جملة أهدافه المعلنة تارة والمضمرة طورا إلى استرداد الشيخ المستنير، الذي تكالب الجميع، المناصرون والأعداء، على اختطافه، فالمناصرون، إلا قليلا، لم يفعلوا سوى أن رددوا مكرور الكلام الذي قيل في كل مناسبة عنيت بطه حسين، دون أن يسعوا إلى قراءة متمهلة لتراثه، والنظر إليه بنظرة عقلانية كما كان يدعو في كتاباته، بعيدا عن القراءات العجلى التي لم تضف له شيئا، أو حتى تستكشف ما توارى بين السطور، من آراء وأفكار لها جاهزيتها الآن.

وبالمثل كان أعداؤه باختزالهم فكره وحصره في دائرة ضيقة، بل وأشهروا سهامهم ونبالهم، دون أن يعطوا لأنفسهم فرصة للتفكير والابتعاد عن الفكر الأحادي الذي خندقوا فيه الرجل، حتى من عاد إلى صوابه منهم، وارتأى في الرجل ما يستحق أن يتناوله بالدرس، أساء له بقدر ما أحسن إليه، على نحو ما فعل المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة وحاول تمريره في كتابه "من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام" (2014)، إذ تخيل أن طه حسين مرتد فسعى عبر كتابه إلى استعادة طه حسين إلى صفوف الإسلاميين، حيث وجد أن العميد تأسلم عندما تقدم به العمر، بل أنكر أعماله الأولى الجاحدة العقيمة، وهو الأمر الذي لا يمت للحقيقة بصلة، ولا ينطوي على أي علاقة بشخصية طه حسين العنيدة.

الشيخ العاشق

الكتاب أشبه باسترداد لطه حسين من براثن الأيادي الآثمة التي عبثت بتراث الرجل وأفكاره، دفاعا عن القيمة لا دفاعا عن الشخص، وبناء على هذا يأتي هذا المؤلف في ثلاثة أقسام، بداية بقسم يحمل عنوان "دفاعا عن العميد". ويحتوي على موضوعات: أصول الشك عند طه حسين، ورأى فيه المؤلف أنه كان سباقا عن غيره في الشك في الشعر الجاهلي، منذ مقالته عن الخنساء، كما سعى لإعادة الاعتبار لكتاب "في الشعر الجاهلي"، بعيدا عما لحقه من اتهامات بأنه منتحل من دراسة مارجليوث عن "الانتحال في الشعر الجاهلي".

كما تطرق النابي إلى دراسة مصادر الشك عند طه حسين، والتي أرجعها إلى دراسته على يد الأستاذ نالينو، وهي المرحلة التي سبقت رحلته إلى باريس، وإن كان نجيب سرور يرجع مصادره إلى تأثره بشيخه أبي العلاء المعري.

وناقش الناقد أيضا اختلاف مفهومه للشك عن ذلك الذي قصده ديكارت في كتابه "مقال في المنهج". كما تناول ما لحق "مذاكرات طه حسين" من تشويه وتحريف، بعدما أعادت إحدى المجلات نشرها احتفاء بذكرى رحيله، وتعرض فيها لعلاقة المذكرات بالجزأين الأول والثاني من الأيام، وهل يمكن اعتبارها متممة للجزأين، أم هي منفصلة يمكن قراءتها كجزء مستقل. إضافة إلى عرض وسائل التشويه أو التحريف التي لحقت بالمذكرات.

كما تناول النابي بالبحث كتاب طه حسين "الأيام"، في محاولة لتحريره من الانتحال أو السرقة كما تخيل البعض، وبأنه مأخوذ من رواية "منصور" لأحمد ضيف، وفيه عرض لقصة "الأيام" ودوافع كتابتها، وأهميتها في مسيرة الأدب العربي الحديث.

وخصص النابي القسم الثاني من الكتاب بعنوان "العميد والريادة" إلى ثلاثة مواضيع، بداية بـ"فتح آفاق المنهج العلمي"، حيث درس كيف فتح طه حسين بدراسته عن أبي العلاء المعري آفاقا جديدة في البحث العلمي، إذ طبق من خلالها أول منهج علمي رصين في ذلك التوقيت المبكر، على شخصية أبي العلاء. وكان المنهج الجديد لحسين بمثابة ثورة على المناهج التقليدية الشائعة في المدارس والأزهر ودار العلوم، وقد اعتبره البديل لإنقاذ الأدب ودرسه في مصر.

وتناول الناقد أيضا قضية "طه حسين في مواجهة تودوروف"، حيث وضع الناقدين في مقارنة تجمع بينهما على قدر ما بينهما من تباين ظاهر، فطه حسين ناقد اجتماعي، وتودوروف ناقد بنيوي. المقارنة غرضها تلاقي الأضداد في الأهداف، وقد لخصتها صيحة تودوروف المتأخرة بأن "الأدب في خطر"، وهي الصيحة التي تلتقي مع صيحة طه حسين التي أطلقها في الربع الأول من القرن العشرين، وهو يبحث عن مشكلات الدرس الأدبي في المدارس والجامعات. وبناء عليه درس الفصل كيف التقى الفكران من أجل هدف وحيد هو التنديد بأن الأدب في خطر. وأظهرت أن غايتهما المشتركة هي البحث عن غاية الأدب، وتمركزها حول الدور الاجتماعي، من حيث هو أداة معرفية واستنهاض وتهذيب، وأن له دورا في توعية القارئ والارتقاء به.

أما الموضوع الثالث فهو متصل ببحث طه حسين عن "استعمالات الضمير الغائب في القرآن"، وهو البحث الذي قدمه حسين في مؤتمر المستشرقين، وهو ما أعاد الهجوم مجددا عليه.

وبحث النابي في القسم الأخير من الكتاب حول "الوجه الآخر من العميد" مقدما بعض وجوه العميد المتعددة، على نحو الناقد المعنف، والشيخ العاشق، والحاج طه. والغرض من هذا القسم هو تقديم صورة متكاملة لحد ما عن العميد، والكشف عن ملامح هذه الشخصية التي تجمع بين النقيضين في بعض جوانبها.

الجزائري مولود معمري كان مثقفا سعيدا وروائيا محبطا

الجزائر – يتساءل ثلاثة جامعيين مختصين في الأدب باللغة الفرنسية في المؤلف الجماعي "مولود معمري: مثقف سعيد وروائي محبط" عن مكانة المثقف في المجتمع الجزائري من خلال أعمال ومؤلفات صاحب "الربوة المنسية".

وقد أشرف محمد يفصح وهو دكتور في الآداب وأستاذ بجامعة وهران على إعداد هذا المؤلف من 144 صفحة، والذي صدر مؤخرا عن دار النشر "فرانتز-فانون".

وتقترح جمعة معزوزي الباحثة والأكاديمية في كندا في هذه الدراسة، قراءة في رواية "الأفيون والعصا" التي صدرت سنة 1965 وهو العمل الذي اعتبرته بمثابة "امتحان للتحرر"، حيث يتمحور حول القرية كفضاء زمني ومكاني (كرونوتوب) للرواية.

ومثلت رواية "الأفيون والعصا" الثورة التحريرية التي قادها الجزائريون ضد الاحتلال الفرنسي، وتمكن معمري من الدمج بين الجانب التاريخي والاجتماعي والسياسي والفني مستحضرا الكثير من الرموز، ما جعل روايته تتموقع ضمن السياقات المعرفية المتميزة، بحيث استطاعت أن تشكل في الخطابات الأدبية مرجعية لها حضورها وآلياتها.

تعاملت الرواية مع الثورة بشكل مختلف عن الخطابات المباشرة التي كانت موجودة حينها، وحاولت من خلال لعبة السرد الذي يظهر ويضمر كشف الصراع الحاد الذي عاشه الشعب الجزائري ضد الاحتلال لتحقيق استقلاله. وببراعة الروائي يصور هذا العمل أهمية المكان ويركز بشكل لافت على جمالياته، حيث يتجسد فيها وعي الكاتب العميق بالكتابة كفعل جمالي وتكويني لذات الإنسان، إضافة إلى أنه شكل ومعنى وذاكرة ووجود، الكتابة عند معمري كانت سؤالا إشكاليا مرتبطا بالوعي الاجتماعي والثقافي.

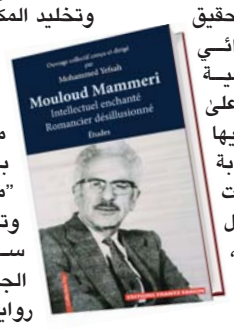

كما اهتمت معزوزي أيضا بالعالم الوظيفي المستعمل في كتابات معمري والشخصيات المشاركة لتشكل بذلك تعددا للأصوات.

وإن كانت الرواية الكلاسيكية أو الرواية الفنية ذات البناء التقليدي تعتبر رواية الصوت الواحد. لذا، سماها نقاد الرواية بالرواية المنولوجية. فإن التعدد سمة الرواية الحديثة، ولم تظهر الرواية البوليفونية المتعددة الأصوات إلا مع دويستفسكي، حسب المنظّر الروسي ميخائيل باختين، وتعتمد هذه الرواية على تعدد المواقف الفكرية، واختلاف الرؤى الأيديولوجية، وترتكز كذلك على كثرة الشخصيات والرواة والساردين والمتقبلين، وقد استفاد منها معمري الذي أرسى عمله الروائي على التعدد في الأصوات دون أن يغفل الشخصية المحورية.

وتبين معزوزي أن معمري أولى اهتماما خاصا للشخصية الأساسية في رواية "الأفيون والعصا"، التي تفلت من المثالية التي تحرك الحرب ويجسد من خلالها "انفرادا في التحرير" عبر خطابه المتعدد.

هذا وشكلت صورة مولود معمري محور إسهام من الأستاذة الجامعية مليكة عصام المختصة في لغات وآداب ومجتمعات العالم بفرنسا، وقد تطرقت إلى الانتقال من صفة "عالم" إلى صفة "بطل المطالبة بالهوية الأمازيغية" في روايات معمري.

> الكتاب الجماعي يناقش تجربة مولود معمري، الذي كان في صف الشعب ضد الاحتلال وتعرض للكثير من النقد

ومن خلال تحليلها أشارت عصام إلى استرجاع حياة الكاتب وأعماله ونشر صورة جديدة لمعمري تجعل منه "معلما مشتركا يعزز المطالبة بالهوية"، ويرتكز هذا التحليل على استذكار معمري من طرف شعراء ومشاهير الأغنية وعدة جمعيات ثقافية لا ككاتب فحسب، بل كمناضل وشخصية وطنية انخرطت في المسار التحرري لشعبها وكتبت بالفرنسية نصوصا جزائرية خالدة تدفع باتجاه التحرر والاستقلال وتخليد المكان الجزائري بكل جمالياته وشخصياته وتفاصيله.

من جهتها شاركت في الكتاب الأكاديمية بجامعة مولود معمري مليكة فاطمة بوخلو وهي صاحبة كتاب "مولود معمري: ذاكرة وثقافة وتاموسني" الذي صدر في سنة 2017، في هذا المؤلف الجديد تقدم بوخلو قراءة في رواية "العبور" لمعمري والتي صدرت سنة 1982، والتي اعتبرتها تكملة "للربوة المنسية" التي نشرت قبل ثلاثين سنة.

أما محمد يفصح فقد اهتم باستقبال الصحافة آنذاك لرواية "الربوة المنسية" (1952)، معتبرا أن معمري "المتعدد" كان في غالب الأحيان "منغلقا على نفسه" وبعيدا عن الشمولية وعن الظهور الإعلامي، وقد تعرض الكاتب بعد صدور روايته منتصف القرن العشرين إلى انتقادات عديدة من الجانب الجزائري خاصة، وهو ربما ما أثر فيه بشكل واضح لكن التاريخ أنصفه بتتويج روايته بعد ذلك بسنة.

وقد عملت الجائزة التي منحتها لجان التحكيم الأربع لرواية "الربوة المنسية" في سنة 1953 على تفاقم الحذر من معمري حسب محمد يفصح.

ويقترح الكتاب حوارا أنجز سنة 2017 مع المخرج أحمد راشدي حول فيلم "الأفيون والعصا" المقتبس من رواية معمري.

كاتب اختار العزلة وأنصفه التاريخ